"فنيقيا" ؟

ما هو أصل تسميتها

طالما سألت نفسي : ما هو الاصل العربي لاسم **(فينيقيا)** ؟ وبتعبير آخر : ما الاسم الذي كان **(الفينيقيون)** أنفسهم يطلقونه على بلادهم فاقتبسه الاوربيون بصيغة (فنيقيا) ـ Phoenicia بالانكليزية و Phénicie بالفرنسية ـ وسموا أهلها (الفنيقيين) ـ Phéniciens Phoenicians فجاريناهم نحن في التسمية ؟

فعلت أول ما يتبادر الى الذهن طبعا وهو مراجعة المعجم العربي للبحث عن مادة **(ف ن ق)** ، فوجدت أن **(الفنق)** ـ كالبرق ـ يعني النعمة والاناقة بوجه عام .. وان **(الفنيق)** ـ كالانيق ـ هو الفحل المكرم من الابل لا يؤذى ولا يركب لكرامته .. وان الغلام **(المتفنق)** ـ كالمتأنق ـ والجارية **(الفنق)** ـ بضم الفاء والنون او **(الفنفاق)** هما المنعمان .. وان **(الفنيقة)** هي المرأة المنعمة ، أو الوعاء أصغر من الغرارة ... الى آخر ما هنالك . وكل واحدة من هاته الالفاظ ـ حتى الوعاء الذي هو أصغر من الغرارة ـ يمكن أن تكون الاصل العربي لكلمة **(فينيقيا)** ، **ويمكن الا** تكون . فمن العبث اذن أن نحاول استنباط شيء له وزن علمي من هذه الالفاظ وأمثالها أو أن نحاول تطبيق هذا المعنى أو ذاك على الاسم دون نص صريح أو سند يعول عليه .

فاول مشكلة تجابهنا اذن هي : هل لفظة (فنيقيا) مصوغة من مادة (الفنق) العربية ؟ ذلك بأن تحريف أسماء الاعلام ولا سيما عند غير أهلها يتجاوز حدود التخمين أحيانا ، مثل اسم : البندقية من Vinezzia بالايطالية ، وايفان Ivan بالروسية من يوحنا ، و **(قرطاجة)** (من Carthage بالانكليزية والفرنسية وهذه من Cartago باللاتينية) من **(قريات حديثات)** أي القرية الحديثة ، كما كان يسميها أهلها ، القرطاجيون .

ومن الطبيعي اذا أردنا البحث عن أصل تسمية (قرطاجة Cartago) اننا لا نصل الى نتيجة صحيحة لو طلبنا في المعجم مادة **(قرط)** أو **(قرطج)** أو **(كرت)** أو أي شيء من هذا القبيل . لهذا لا ترجى فائدة من تمحيص كلمة (الفنق) بحثا عن اسم (الفنيقيين) ، فلعله مثل اسم قرطاجة مشتق من مادة عربية أخرى بعيدة عن نطقها الاوربي .

هذا نقوله ان كانت لفظة (فنيقيا) تمت الى أي نسب عربي أصلا ، لان من المحتمل أن تكون من وضع الاوربيين أنفسهم مثل (ميزوبوتاميا Mesopotamia) ـ أي بين النهرين ـ وهي كلمة اغريقية لا صلة لها بلغة النهرين . فهل اسم (فنيقيا) فنيقي الاصل أم أعجمي ؟ هذه **مشكلة ثانية** .

اكتشفت ذات يوم ان كلمة Phoenix التي تعني بالانكليزية طائرا خرافيا مقتبسة من كلمة (عنقاء) العربية ـ **عن طريق الاغريقية ـ بعد ابدال حرف العين** فاءا في أول الكلمة ، كما يقع في اللغة العربية نفسها أحيانا مثل : جدع وجدف ، عرك وفرك .. ولا سيما ان الاغريق عرفوا أن (فنيقس foinix) هذا طائر خرافي **من بلاد العرب** .

والذي يهمنا الآن هو أن كلمة Foinix الاغريقية لها معنى آخر يتصل اتصالا مباشرا وثيقا بموضوعنا ، وهو أنها اسم (فنيقس بن امينتور Amyntor معلم اخيل Achilles الملك الاغريقي ورفيقه في حرب طروادة التي يظهر أنه أحسن البلاء فيها بحيث غدا من أبطال الاليادة . وقد ذكرت الاساطير أنه (أبو

الفنيقيين) ، أى ان اسمهم من اسمه . وقد يبدو هذا فى تفتيشنا عن أصل تسمية الفنيقيين كشفقا مهما يلقى على المسألة ضوءا جديدا ، غير أنه فى الواقع يلقى عليها ظلاما جديدا ، لانه يخلط بين اسم **الفنيقيين** واسم **العنقاء** .

فهل لاسم فنيقس بن أمينتور ، أبى الفنيقيين المزعوم ، علاقة باسم العنقاء حقا ؟ هذه **مشكلة ثالثة** . هل كان الفنيقيون يتسمون بالعنقاء ياترى شأن : قريش ، ونمير ، واسد ، وبكر ، وكلب ، وجحش .. وغيرهم من بنى جلدتهم العرب الذين تسموا باسماء الحيوانات المعروفة ؟ ان صح ذلك فربما كان الفنيقيون تسموا – من باب الفخر مثلا – باسم هذا الطائر الخرافى السرى الذى لا تدركه الابصار ولا يبزهم فيه أحد من بنى الحيوانات الاخرى التى تسمى بها سواهم (كمظهر من مظاهر الطوطمية التى تدل الدلائل على أنها كانت شائعة فى بلاد العرب قديما كما كانت شائعة فى غيرها من أرجاء العالم) . هذا أيضا مجرد تخمين لعل احتمال الخطأ فيه أكبر من احتمال الصواب ، ومهما قلنا فيه لا نخرج عن نطاق التظنى الذى لا يعطى قناعة ولا يحسم جدلا .. ولا سيما أن اسم الفنيقيين ورد فى اللاتينية بصيغ أخرى لا علاقة لها بالعنقاء وأهمها : Poenorum و Puniceus و Poeniceus و Poeni .

ويلاحظ أن هذه الصيغ تبدأ بحرف الباء الاعجمية المركزة (P) بالاضافة الى صيغ أخرى تبدأ بالفاء (Ph) مثل : Phoenicum و Phoenice و Phoenices التى يرجع أصلها الى الصيغة الاغريقية (Foinikes) . فكيف جاء الخلط بين اسم العنقاء واسم الفنيقيين وفنيقس ؟ هذه **مشكلة رابعة** .

واما اسم فنيقيا (وطن الفنيقيين) فهو فى اللاتينية Phoenice و Phoenices و Phoenica و Phoeniae . وهذه الصيغ أيضا مقتبسة بشىء من التحوير من الاغريقية (Foinikē) . وهنا مشكلة **خامسة هى** : هل اسم فنيقيا مشتق من اسم الشعب الفنيقى مثل اشتقاق اسم **(فرنسا)** من اسم القبائل الجرمانية المسماة (فرانك Frank) أم ان اسم الشعب الفنيقى هو الذى جاء من اسم الارض التى كانوا يعيشون فيها كما هى العادة فى تسمية معظم شعوب البشر ؟

وثمة ملاحظة أخرى هى أن اللاتين أطلقوا هذه الصيغ على الفنيقيين والقرطاجيين جميعا . بل ان بعض الصيغ البائية الانفة أصبحت مع الزمن أدل على القرطاجيين منها على الفنيقيين حتى ان اللغة القرطاجية صارت تدعى Punique بالفرنسية و Punic بالانكليزية من Punicus اللاتينية . ودخلت هذه التسمية فى اللغة العربية أيضا فدعوا اللغة القرطاجية **(بونيقية)** او **(بونية)** .

وبعض المعاجم يفسر هذا الازدواج فى التسمية بان السبب هو كون القرطاجيين مستعمرين فنيقيين فى الاصل . ولكن ما للرومان ولهذا ؟ ان مدينتهم روما نفسها لم تكن قد ظهرت فى الوجود عند تأسيس قرطاجة (814 ق م) ، لان روما تأسست بعدها بستين سنة ، أى عام 753 او 754 ق م ، على الشائع . فما الذى دعاهم الى هذا التمسك العلمى بالواقع التاريخى الذى لم يدركوه أصلا ، فسموا أهل قرطاجة باسم وطنهم الاول فنيقيا ؟ **الحق أن الاغريق أقدم من الرومان فهل عنهم أخذ الرومان المحدثون تسمية القرطاجيين فنيقيين ؟** يجوز . ولكن ألم تكف القرون المتوالية لجعل الرومان يميزون بين الفريقين ويدعون القرطاجيين الذين كان لهم كيانهم الخاص وامبراطوريتهم الكبيرة باسم خاص بهم غير اسم الفنيقيين ؟ **فهذه مشكلة سادسة** .

واسترعى نظرى فى مجلة (اللسان العربى) (I) تصوير بالزنكوغراف لوثيقة تاريخية هى نقش على رخامة وجدت فى البرازيل ، مكتوبة باللغة القرطاجية – عام 125 ق م – يصف أصحابها محنة وقعوا فيها من أسر ومرض وهلاك . وتتألف الاكتوبة من ثمانية أسطر هذا نص السطر الاول منها :

«هنا احنا بنى كنعان م فريم حقره حمل . أو ش حر حصل هك ؟»

وترجمته بعربيتنا وكتابتنا :

«هنا نحن بنى كنعان من فرايم حملنا الحقارة . أليس حراما ان نحصل هكذا ؟»

(I) العدد الثانى : يناير (كانون الثانى) 1965 . ص 35.

الذى يبعث الدهشة فى هذا الاستهلال المؤثر أن القوم كانوا لا يزالون يذكرون أنهم ينتمون الى بنى كنعان حتى بعد خروجهم من أرض كنعان وتأسيس (القرية الحديثة) بنحو ستة قرون ، بل حتى بعد هجرتهم من قريتهم الحديثة ثم عبورهم المحيط الاطلسى الى العدوة الاخرى فى أمريكا الجنوبية ـ دار الغربة النائية تلك . ولا استطيع أن أستنتج من هذا الا اعتدادهم بنسبهم العريق على الرغم من بعد الشقة مكانا وزمانا .

وعلى الرغم مما كانوا فيه من محنة تمنعهم من المباهاة لا نخطىء أن نستشف من لحن كلامهم صوت الكرامة الجريحة تخاطبنا من وراء واحد وعشرين قرنا، وكأنى بهم انما يقصدون أن يقولوا : «أليس حراما أن نحصل هكذا .. **(ونحن بنو كنعان ؟)**

ان للوثيقة خطورة متعددة الجوانب فى الحقيقة جديرة بالدرس كلها . فليت هؤلاء القرطاجيين الذين ما زالوا ينتسبون الى اجدادهم البعيدين بنى كنعان قد ذكروا لنا كذلك اسمهم الدولى الذى صاغ منه الاغريق اسم فنيقيا والفنيقيين .

ولكن مهلا .. لقد ذكروه . انه : **«بنى كنعان»** !

أجل ان كلمة Foinikes الاغريقية ليست الا **(بنى كنعان)** بتحريف يسير ، كثيرا ما يقع مثله واكبر منه عند انتقال الكلمة من لغة الى لغة . وصياغة Foinikes من **(بنى كنعان)** بلسان أجنب كثير التحريف ليست أغرب من صياغة foinix من **(العنقاء)** ، ولا أعجب من صياغة Cartago من **(قريات حديشات)** .

وكلمة Cartago هذه لا تتضمن الا الحروف المشطوب تحتها من (قريات حديشات) : ق ر ى ا ت ح د ى ش ا ت .. وهى أربعة حروف من أحد عشر ، أى نحو الثلث . أما كلمة Foinikes فتحوى جميع حروف النصف الاول من (بنى كنعان) : **ب ن ى ك ن ع ا ن** . ولعل اللفظة الاغريقية كانت أكمل فى أول عهدهم من اقتباسها وأقرب الى أصلها العربى ثم اختزلوها . أما ابدال حرف الباء فاءا فى أول الكلمة فهو أسهل من ابدال العين فاءا فى (عنقاء)، ولا لوم على الاغريق فيه على كل حال لان العرب أيضا فعلوا ذلك مختارين فى لغتهم العربية فقالوا مثلا الخربشة والخرفشة ، وجيب القلب ووجيفه ، الابلج والافلج ، يختبى، ويختفى ، يقصب ويقصف ، يبيح الدم ويفيحه.

وأما تغيير حركة الفتحة على الحرف الاول بالضمة أو شبهها فما أكثر أمثاله فى العربية . من ذلك : القمة (بكسر القاف) والقلة والقنة (بضمه فى كليهما) . ومن ذلك (السرعة) فهى عندهم : السرعة (كالعقدة) ، والسراعة (كالسحابة) ، والسرع (كالعنب) ، والسرع (كالغضب) ، والسرع (كالصدق) ، والسرع (كالشرع) والنماذج من ابدال الحروف والحركات فى العربية لاتكاد تحصى لكثرتها وتنوعها .

واذا تذكرنا أن كلمة **(بنزين** benzine **)الاوربية** من أصل عربى هو **(لبان جاوه)** وهو نوع من الصمغ العطر كان العرب يصدرونه الى أوربا ـ وقد تطورت فى الفرنسية من luban jaoua الى benjoin وفى الانجليزية من benjoin الى benzoin الى benzole الى benzene الى benzine ـ اذا تذكرنا ذلك أصبح تطور اسم **(بنى كنعان)** الى Foinikes أمرا هينا ، سهل التصديق ، ولا سيما ان الاغريق يعجزون عن نطق صوت العين فحذفوه مع ما بعده ، وحذفوا النون الذى قبله اختصارا لهذا الاسم الطويل ، كالذى فعل اللاتين من بعدهم باسم قريات حديشات . ولعل تطور اسم **(بنى كنعان)** الى Foinikes قد جرى على مراحل مثل تطور (لبان جاوه) الى (بنزين) . (I)

ومهما يكن فلا مجال لنا ان نتجاهل الامر الواقع وهو أن اللاتين كانوا يسمون الفنيقيين والقرطاجيين فنيقيين Foinikes كما تشهد المعاجم والمأثورات وأن القرطاجيين كانوا يسمون أنفسهم **(بنى كنعان)** كما تصرح رخامة البرازيل . وواضح ان هذا الاسم من ذاك لفظا ومعنى .

ويظهر أن اللاتين قد أخذوا عن الاغريق صيغتهم

(I) شرحنا ذلك وأمثاله من تحريفات الاعاجم في العدد الثاني من مجلة (اللسان العربي) تحت عنوان « تأثير الاعاجم في لغة العرب » . ص 20 .

Phoenices بالفاء ثم استخرجوا منها صيغة Phoenice و Phoenicum .. ولكنهم وجدوا بعد ذلك عن طريق الاحتكاك بالفنيقيين ـ بنى كنعان ـ ان الاصوب نطق الاسم بالباء ، لا بالفاء ، فقالوا : Poenicus و Poenicus و Puniceus و Punicus و Poenorum و Poeni

وهذا أيضا غير نادر الحدوث ، وقد وقع مثله للعرب فى جيلنا هذا بتأثير الكتب المصرية ، فهى تذكر اسم الانكليز مثلا (الانجليز) بالجيم حسب النطق المصرى . وقد ظل عرب الشرق الاوسط الذين تعلموا فى مطالع هذا القرن بالكتب المصرية يكتبون الاسم وينطقونه بالجيم ، ثم صححوا نطقهم مع الزمن فصاروا ينطقونه بالكاف الفارسية ، ولو أنهم يكتبونه بالكاف العربية . على أن المغاربة مازالوا ينطقونه ويكتبونه بالجيم ، بسبب تأخر دخول الكتب المصرية ديارهم ، ولاشك انهم سوف يصححون ذلك كذلك بعد حين .

فلعل شيئا مثل هذا قد حدث لكلمة foinix الاغريقية اذ اقتبسها الرومان بالفاء أول الامر نطقا وكتابة ثم صححوها فكتبوها بالباء ـ الباء المركزة (P) ـ لانها أقرب الى الاصل العربى من الفاء على كل حال. وتعايشت الصيغتان ـ الفائية والبائية ـ وتطورتا ، ثم كثرت الصيغ البائية كالذى رأينا .

ومن الطريف ان نجد بين التحويرات الآنفة صيغة (Poeni) وهى اختزال آخر ، وكأنما أرادوا به الاكتفاء بالجزء الأول من الاسم العربى : (بنى ..)

واذا عدنا الآن الى **مشاكلنا الست** فاستعرضناها واحدة واحدة نجدها قد انحلت جميعا من تلقاء نفسها بمجرد معرفتنا ان Foinikes بنى كنعان.

فاولا : ليست كلمة فنيقيا أو الفنيقيين من مادة (الفنق) العربية ، ولا صلة لها بالجمل الفنيق ولا الغلام المتفنق ... ولا الوعاء الذى هو أصغر من الفرارة.

ثانيا : انها ليست كلمة اغريقية وضعها الاغريق من لغتهم للدلالة على الفنيقيين ، وانما هى كلمة عربية مؤغرقة ببعض التحريف كما هى العادة فى اقتباس الالفاظ من لغة الى لغة .

ثالثا : ان اسم الفنيقيين ليس مشتقا من اسم (فنيقس (Foinix) ابن أمينتور بطل الحرب الطروادية ، ولا هو ابو الفنيقيين . وانما يظهر أن العكس هو الصحيح ، أى ان فنيقس بن امينتور هذا لما كان من بنى كنعان ـ ومعلوم أنه ابن الملك الفنيقى المشهور آجينور ، أخوه قدموس واخته اوربا ـ لما كان من بنى كنعان سمى فى الاغريقية باسمهم كما نقول نحن : فلان الحجازى او العراقى او اللبنانى ـ ولما كانت الاساطير كثيرا ما تتخذ اسم الشخص رمزا لاسم قبيل او شعب أو طبقة من الناس فمن المحتمل أيضا ان بنى كنعان ـ بعضهم ـ اشتركوا فى حرب طروادة الى جانب الاغريق وأبدوا بسالة سجلتها لهم الاساطير ، ورمزت اليهم بالبطل فنيقس Foinix

أما ان هذه الكلمة تدل فى الاغريقية على العنقاء ـ **رابعا** ـ فالذى نراه هو أن الشبه الشديد بين اسم الفنيقيين (Foinikes) واسم العنقاء Foinix. فى لغة الاغريق أفضى الى التباس الاسمين عليهم فخلطوا بينهما كما خلطوا بين اسمى سوريا (Syria) وآشور (Assyria) ، وكمان خلط الانكليز بين كلمة benjoin التى سبق الحديث عنها واسم بنيامين (Benjamin) فاستعملوا هذا الاسم التوراتى المشهور بمعنى الاسم الاول أى الصمغ الجاوى . وبسبب مثل هذا التشابه اللفظى يقال للهر فى لغة الموصل (هارون)! وما أكثر ما تتحد كلمتان فى كلمة واحدة اذا تشابه نطقهما او معناهما ، خصوصا اذا كانتا أجنبيتين .. وعلى هذا أصبح من الواضح ان اسم الفنيقيين لا علاقة له بالعنقاء سواء أكانت لاسم البطل فنيقس علاقة بها أم لم تكن .

وبات بديهيا لدينا الآن ـ **خامسا** ـ ان اسم الشعب الفنيقى ليس مشتقا من اسم فنيقيا ، بل ان اسم فنيقيا هو المشتق من الفنيقيين ـ بنى كنعان ـ كما يحلو لهم أن نسميهم . واتضح ان اسم (فنيقيا) لا وجود له عند أهل فنيقيا نفسها على كل حال . وانما هو اسم صاغه الاجانب من اسم الكنعانيين للدلالة على موطنهم .

سادسا : عرفنا الآن لماذا كان اللاتين يطلقون اسم الفنيقيين على القرطاجيين أيضا . فليس السبب هو

معرفة اللاتين بأن القرطاجيين ينحدرون من أصل فنيقي كما يتوهم المعجميون ، ولا هو كونهم ـ اللاتين ـ نقلوا هذه التسمية المزدوجة عن الاغريق كما قد يتبادر الى الذهن ، وانما السبب البسيط العجيب هو ان القرطاجيين أنفسهم طفقوا الى عهود متأخرة يذكرون نجارهم السحيق ويتسمون بأبوتهم العرب الشآميين (بنى كنعان) حتى بعد ان اندثرت قرطاجة ، وحتى بعد ان نزحوا الى أمريكا .

وثمة **مشكلة سابعة** لا أحسبنا قادرين على ايجاد حل نهائي مقنع لها الآن ، وهي السؤال : من هم هؤلاء الذين خلفوا هذه الوثيقة المرمرية في البرازيل ؟ صحيح أنهم من بنى كنعان كما صرحوا وان لغتهم القرطاجية كما تقول اكتوبتهم ، ولكن هذه اللغة كانت شائعة في شمالي افريقيا وغربيها وغربي أوربا أيضا ولا سيما في شبجزيرة (شبه جزيرة) ايبريا . وقد كان بنو كنعان منتشرين في هذه الاصقاع مثل انتشار اخلافهم العرب في نفس المناطق تقريبا بعد الفتوح الاسلامية . لهذا يحتمل ان يكونوا قد أتوا البرازيل من أي ربع من تلك الربوع التي كانت تتكلم اللسان القرطاجي .

ولكن يمكن الظن انهم من الموريطانيين المغاربة ـ القرطاجيين خاصة أو الكنعانيين عامة ممن كانوا قد استقروا في موريطانيا المغربية ـ لانهم أقرب جغرافيا الى أمريكا . وحتى ان كانوا من قرطاجة او غيرها من الامصار فلابد ان نقطة انطلاقهم ـ او مرورهم ـ كانت من بعض الموانىء الواقعة على المحيط الاطلسي ، ولا سيما ان كانوا قد عبروه من الجنوب ، وهو الارجح ولا سيما لكونهم في أمريكا الجنوبية .

فعلى هذا يسعنا ان نعتبر مكتشفي أمريكا هؤلاء ـ ان لم يكن قد سبقهم بعض العرب او غيرهم الى اكتشافها ـ يسعنا ان نعتبرهم من **المغاربة** ، ولو موقتا ، الى أن يظهر برهان صريح يؤيد ذلك او يفنده .

عبد الحق فاضل